القسم السادس
الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية
٢

عصر الاستقلال الذاتى

الحسن بن علي بن ابى الحسين

جاء الحسن والياً من قبل المنصور ، يختال بين بردتى فضل وشمم ، وكان معه اسطول يحمل جنداً ومتاعاً ، فنزل مدينة مازرة ، سنة ٣٣٥ فلم يلقه احد هنالك ، ولما جن الليل ، جاءته جماعة من كتامة ومن وجوه الجند الافريقى وأعلموه انهم لم يجسروا على لقائه نهاراً خوفاً من إبناء الطبرى ، ورجال الثورة المتقدة ضد عطاف وضد الحكم الفاطمى ، وضد سياسة الشدة والارهاب ، وأوصوه بالحذر الشديد ايغاراً لصدره وحثاً له على الاستمرار في سياسة البطش .

لكن الحسن كان غير الرجال السابقين وقد جاء صقلية يحمل فكرة صالحة ويعتزم سلوك سياسة رشيدة ضارباً صفحاً عن كل ما تقدم من أمر الفتن والاضطراب .

سار فى جنده وموكبه ودخل بالرمة العاصمة ولم يكن آل الطبرى قد اتصلوا برسائل من وفدهم بالمهدية لكنهم لم يجسروا على مقاومة الحسن وراوا التريث والتمهل إلى أن يظهر امره وتتجلى سياسته .

العدل أساس الملك — رأى آل الطبرى يومئذ الالتجاء إلى مكيدة تمكنهم من سبرغور الوالي وتجعل لهم الحجة فى اعلان الانتفاض عليه واثارة العامة والدهماء ضده فاتفق السيد اسماعيل زعيم آل الطبرى مع أحد غلمانه واستدرج الى داره

احد عبيد الحسن ومهد له سبيل الاختلاء بجويرية من جواريه ثم اخذت اصوات الصراخ والاستغاثة ترتفع من سائر اطراف قصر آل الطبري واسماعيل يزمجربان عبداً للوالى انتهك حرمة منزله واعتدى على حرمه فاجتمع الناس وقبضوا على العبد وساروا به الى قصر الولاية امام الحسن بن علي وكان اسماعيل يعتقد ان الامير لا يتنازل لسماع شكاته اوالاقتصاص من عبده وبذلك يتمكن من اثارة العامة ضده لكن الامير الحسن اوقف عبده موقف الاتهام على مراى ومسمع من الناس واعترف العبد بما اتهموه به فاصدر الامير امره باعدامه ردعاً لامثاله ممن تسول لهم انفسهم الاعتداء على الحرمات ؛ فاكبر الناس منه ذلك الانصاف ومالت قلوبهم اليه وانقلبت مكيدة ابن الطبرى ضد مدبرها

ثم ان الخليفة المنصور قبض على من عنده من آل الطبرى بافريقيا واصدر امره للحسن بان يقبض على بقاياهم فى صقلية ويرسل بهم اليه ففعل بعد ان استدعاهم لوليمة بيستانه نازعا سلاحهم مفرقا عنهم انصارهم وارسل بهم الى افريقيا حيث اسكنهم المنصور بعض الجهات وابعدهم نهائياً من مركز الفتنة .

العودة للجهاد وفتح طبرمين — اطمأنت النفوس للحسن والتفت القلوب حوله اذ راوا فيه مثال العدل والنزاهة والخلق الكريم وراوا فيه طي صفحة الماضى المؤلم ماضى ولاة الجور والتنكيل والانتقام وفتح صفحة جديدة تربط حاضر صقلية ومستقبلها بماضيها الجليل .

ورأى الروم ذلك وايقنوا ان المسلمين ان جمعوا امرهم ووحدوا كلمتهم فلا نتيجة لذلك الا عودتهم الظافرة لميدان الجهاد ، فبادر المسيحيون بدفع اموال الجزية المتخلفة لديهم عن ثلاثة اعوام وقد تقاعسوا عن دفعها عندما رأوا ما حل بالمسلمين من خلاف وشقاق وفتنة دهماء .

فى سنة ٣٥١ هاجم المسلمون قلعة طبرمين التى كانت تحمل آمال الروم القسطنطينيين فى شرق الجزيرة ، وكانت ممتنعة على المسلمين بما امدها به الروم ؛ وكان المسلمون يومئذ تحت قيادة الامير احمد بن الامير الحسن وقد اشركه ابوه معه فى الحكم واعده ليخلفه من بعده ؛ ودام حصار طبرمين سبعة اشهر ثم اقتحمها المسلمون بين اصوات التهليل والتكبير ، بعد ان قطعوا عنها الماء وافتتحوها ؛ واطلق عليها القائد احمد اسم « المعزية » نسبة للخليفة المعز الفاطمى .

ثم توجه المسلمون تحت قيادة القائد الكبير الحسن بن عمار ، ينصبون الحصار على مدينة رمطة Rametta جنوب طبرمين محطمين بذلك آمال النصرانية في شرق الجزيرة ، وكان الروم قد حصنوا المدينة تحصينا منيعا فاشتد المسلمون فى حصارها ونصب الحسن بن عمار حولها المجانيق والعرادات فالحق بالمدافعين عنها اضرارا جسيمة الى ان اقتحماعليهم عنوة وافتتحها يوم الخميس آخر رجب سنة ٣٥٢(٩٦٥)

مسجد ريو — كانت جزيرة ريو ، من جزر النصرانية يختلف اليها المسلمون ويستقرون فيها لامور تجارتهم الواسعة او يقيمون فيها اثناء اسفارهم ؛ فارسل الامير الحسن بن على بنائيه ورجال الفن واختط فى تلك الجزيرة مسجداً فخماً فى احد اركانه مأذنة عالية وتعاقد مع النصارى على احترام الحرية الدينية وتعهدوا له انهم لن يمنعوا المسلمين من غشيان المسجد وتوعدهم الامير بانهم ان حالوا دون المسلمين ومسجدهم فانه يقابل العمل بمثله ، ويحول بين المسيحيين وكنائسهم فى صقلية وافريقيا ؛ واشترط عليهم ان المسجد حرم يحمى من التجأ اليه مثل سائر معاهد الدين فى ذلك العصر ، واحترم النصارى العهد .

محاولات الروم فى جنوب ايطاليا — فى هاتيك الاثناء والمسلمون يستعدون للقضاء نهائيا على آخر آمال الروم بتلك الديار ، ويستعدون للقضاء على الخطر النرماني الناشيء ، كان بلاط الروم في القسطنطينية يشعر بمقدار الكارثة التى

اصابته ويستعد لاسترجاع مكانته الحربية ومنعته السياسية وقيمته الدينية المسيحية فجهز الامبراطور اسطولا عتيداً حمله جنداً غفيرا وسلاحا وفيراً وارسل به نحو الجنوب الطلياني يحاول استخلاصه من ايدى المسلمين .

علم الحسن بن علي بالامر ، فارسل الى المهدية يستنجدها فجاءه الاسطول الفاطمى يحمل سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل ، واستعد الفريقان للنزال والكفاح وكان ذلك سنة ٣٣٦ (٩٤٨) فالتقى الجمعان براً وبحراً ، واندحر الروم فرجعوا على اعقابهم خاسئين . وشيد الحسن بن على مسجداً بمدينة رجيو (Réggio) فى قلورية توطيداً لحكم المسلمين وتثبيتاً له ؛ واجبر الروم المقيمين بمدينة اوترنتة عل دفع الجزية .

بعد سبعة اعوام من ذلك سنة ٣٤٣ ، اعاد الروم الكرة على المسلمين في الجنوب الطليانى ، وجاء بطريقهم ارجريوس على رأس عمارة بحرية قوية فنصب الحصار على مدينة نابولى ، وكانت عاصمة امارة مسيحية مستقلة ، وحليفة وفية لمسلمى صقلية ؛ وكان الروم حاولوا يومئذ الانتقام منها من أجل ذلك .

سار المسلمون تحت قيادة الامير عمار بن علي اخى الامير الحسن وقد كان يتولى امر المسلمين فى اروبا ، فجمعوا جهودهم الى جهود اهل نابولي ، وتمكنوا من دحر اسطول الروم ، وردوا المهاجمين على اعقابهم مرة اخرى .

لكن الروم نزلوا الارض فى بلاد قلورية ، محاولين قطع الصلة بين صقلية والبلاد الاروبية ؛ فتمكنوا من بعض الجهات ، واحتلوا مدينة رجيو وهدموا مسجد الحسن بها ايذانا بزوال سلطة المسلمين ؛ وغلواً فى التعصب المسيحى .

جمع الامير الحسن قوته ، وسار الى قلورية يضم جهوده لجهود اخيه عمار فالتقى المسلمون بالروم فى وقائع عديدة ، واعادوا احتلال رجيو والتقوا باسطول الروم امام مرسى اوترنتة فحطموه ودحروا بقاياه واضطر الروم للانسحاب وطلب المهادنة

وذلك سنة ٣٤٨ (٩٦٠)

الانتصار الاكبر فى معركة المجاز — كان الفريقان يعلمان ان القتال بينهما لم ينته بعد وكانا يستعدان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ويعلمان ان نتيجتها ستكون اما خسارة صقلية وجنوب ايطاليا نهائياً وانقطاع امل الروم بصفة باتة هنالك ؛ او تقلص ظل المسلمين وانهيار سلطانهم نهائيا فى البلاد الاروبية وجزيرة صقلية .

ولم يضيع الروم وقتهم سدى فقد جهز الامبراطور اسطولا لم يجهز مثله من قبل قوة ومنعة وعدداً وشحنه باربعين الفاً من اشداء المقاتلين تحت امرة ابن اخيه مانويل وامير البحر نيستاس ؛ ونزل الروم ارض صقلية فى ناحية المضيق الذى يفصل بينها وبين ايطاليا ويسميه العرب المجاز وكان الجند الرومى مؤلفاً من جماعات الاغريق والمجوس و لارمن والروس في قوة لم تطأ ارض الجزيرة مثلها من قبل .

وضع المسلمون قوتهم وكانت قليلة العدد بالنسبة لقوة الروم تحت امرة القائد الحسن بن عمار وسار هذا على راس المجاهدين المسلمين يقف في طريق الجند الرومى ويحول بينه وبين الوصول الى رمطة .

استعد الحسن المعركة فوضع جنداً في مضيق بنقش وجنداً آخر فى مضيق دمنش ، وهما طريقان جبليان وعران ؛ وعلم قائد الروم مانويل بذلك ، فارسل فرقتين من الجند قويتين لتقتحم كل واحدة منهما مضيقا وتنتزع من ايدي المسلمين طريق ورود النجدة والمدد .

التقى الجمعان وزحف المسيحيون فى ستة مواكب فاحاطوا بالمسلمين من كل ناحية نظراً لكثرة عدد الروم وقلة عدد المسلمين فجاهد المسلمون جهاد المستميت وتغلب عليهم الروم فتقهقروا حتى وصلوا خيامهم وايقن الروم انهم فازوا وغلبوا واستولوا على معسكر المسلمين .

لكن هنالك قوة يصعب التغلب عليها ويستحيل قهرها الا وهي قوة الروح قوة الايمان ، قوة العزيمة ؛ تلك قوة تستطيع ان تغلب وان تتغلب ، وتستطيع ان تفرض ارادتها وتنتصر اذا ما خارت قوى المادة وضعفت .

رأى المسلمون انفسهم نقطة ضعيفة وسط لجة من قوى الروم وعلموا ان هم خسروا المعركة فصقلية كلها قد ضاعت ، ومسلموها اصبحوا عبيدا ومساجدها صارت محطمة وعمرانها امسى خرابا ؛ ثم علموا ان النصر لمن صبر الساعة الاخيرة فتشجعوا بعد وهن ؛ وتغلبوا على ما اصابهم من ضعف وروعة ؛ وجمع الحسن ابن عمار رضي الله عنه جماعة صادقة من المسلمين وقال : اللهم ان بني آدم قد اسلموني ، فلا تسلمني . وحمل معهم حملة الابطال على جماعة الروم وتبعه رجال المسلمين من كل صوب وراى مانويل ان رجال الروم قد اصابتهم الدهشة من هذه الصدمة التي لم تكن منتظرة ، فصاح بهم : اين افتخاركم بين يدي الامبراطور واين ما ضمنتم له فى هذه الشرذمة القليلة ؟ واشتدت المعركة وسالت الدماء ، وتناثرت الاشلاء وتساقطت الجثث ، وتغلب المسلمون القليلون على الروم الكثيرين واقتحم احد مجاهدى المسلمين صفوف الروم فوصل الى القائد مانويل وارداه قتيلا

واذ كان النصارى يقاسون كربا ثقيلا والمسلمون يمعنون فيهم قتلا واسراً ، ثارت زوبعة شديدة ورعد وبرق ، فاشتد بهم الرعب والفزع واصبحوا لا يفكرون الا في النجاة بالنفس ، وصدق الله تعالى قوله : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) .

انهزم الروم لا يلوون على شيء ، فمالوا فى انهزامهم الى جهة ظنوها سهلة وطيئة توصلهم الى ساحل البحر فاذا هي جهة وعرة صعبة المسالك ادت بهم الى جرف حفير عظيم فسقط الكثير منهم فيه ؛ وامسوا هنالك يقتل بعضهم بعضا والمسلمون ينهالون عليهم ضربا بالسهام والسيوف ، فما انقضى اليوم حتى ترك الروم نحو العشرة

آلاف قتيل على اديم الارض ؛ وانهزمت بقاياهم شريدة حتى وصلت الاسطول فنجت بنفسها فيه ، وباء المسلمون بنصر عظيم فى معركة من اروع واشد واغرب معارك القرون الوسطى ، وكان ذلك يوم عرفة من سنة ٣٥٤ (٢٤ اكتوبر ٩٦٥) وجاء المسلمون بالبشرى الى بالرمة ، والامير احمد ابن الحسن يسوق الغنائم والاسلاب والاسرى ، وخرج الامير الحسن بن علي للقاء ابنه مهنئا المسلمين بانتصارهم وفوزهم ، واصابته حمى من شدة تأثره وسروره في ذلك اليوم العظيم ، فمات رحمه الله من اثر ذلك بعد ولاية دامت نحو العشرين عاما ، كانت غرة في جبين الدهر ، وآية من آيات المسلمين اظهروا فيها ما يستطيعون القيام به من جلائل الاعمال فى الحروب والسياسة والعمران ، ان هم وحدوا جهودهم وجمعوا كلمتهم ووجهوا هممهم للقيام بالرسالة الكبرى التى اختارهم الله لادائها في تلك العصور الوحشية لاخراج الناس من الظلمات الى النور .

احمد بن الحسن بن علي

اجمع الناس امرهم على توليته وحده بعد ابيه ، وقد كان كما علمنا مشاركا له فى الحكم والتدبير والحروب طيلة حياته .

الاجهاز على الروم — لم يضع الوقت سدى ، ولم يرد ترك الروم يجمعون من جديد فلولهم لاعادة الكرة بعد نكبتهم الكبرى ، فبادر بمهاجمتهم بخيله ورجله وفاجأهم في المعاقل التي التجأوا اليها ، فاسترجع رمطة واسر من كان بها من بقاياهم ثم اجتاز البحر مسرعا الى قلورية ، فاحرق فى رجيو اسطول الامبراطور واسر امير البحر يناناس ، وارسل به مع عدد جسيم من عظماء الروم المأسورين الى بلاط الخليفة فى المهدية ، ويقول بعض المؤرخين ان من جملة الغنائم التي وجه بها الى المهدية سيف هندي بديع الصنع منقوش عليه : « سيف هندى ، وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدى رسول الله »

الصلح — اذعن الروم للامر المقضي ، وعلموا انهم لن ينالوا من مسلمي صقلية منالا ، وان آمالهم خابت هنالك بصفة نهائية ، فعزموا منذ تلك الساعة على عدم التدخل مطلقا في امور الجزيرة ، وارسلوا وفداً من القسطنطينية حل بمدينة المهدية وتقدم امام الخليفة المعز ، يطلب الصلح ويعلن جهاراً عزمهم على عدم العودة ، ويقدم للخليفة ولرجال بلاطه واعيان دولته هدايا نفيسة ، وتعاقد الجانبان على ان لا يعود الروم مطلقا لساحة صقلية ، ومقابل ذلك يخلى المسلمون طبرمين ورمطة لكي يسكنها المسيحيون من نصارى الجزيرة .

كانت هذه غلطة سياسية كبرى ارتكبها المعز ورجال شوراه ، لانها مكنت النصارى من شرق الجزيرة بعدما اخرجتهم منه شدة شكيمة المسلمين ، ولان تلك البقاع اصبحت فيما بعد ؛ كما سيمر بك ، مركزاً من مراكز جهاد المسيحية ضد الاسلام بهاتيك الديار على يد النرمان .

اصدر الخليفة امره المطاع للامير احمد بن الحسن ؛ باخلاء مدينتي رمطة وطبرمين تنفيذاً للمعاهدة ، فاغتم المسلمون من ذلك وتألموا ألماً عظيما واذعن الامير احمد للامر ، الا انه عمد قبل ذلك لتخفيف وقع تلك الغلطة فارسل اخاه ابا القاسم صحبة عمه جعفر على رأس جماعة من المسلمين ، فاخرجوا من المدينتين كل السكان واعملوا فيها المعاول والفؤوس فلم يتركوا فيها حجراً على حجر واحرقوا بالنار هاتيك الانقاض فلم يتركوا للمسيحيين تنفيذاً للمعاهدة الا ركاما من خراب ورماد .

ختان اطفال الجزيرة — ساد الجزيرة عهد فرح وسرور وامن اثر ذلك النصر العظيم واقبل الناس على اعمالهم العمرانية وانشآتهم يصلحون ماافسدته ايدي الفتن السالفة وما اوقفهم سير الحروب والملاحم عن انجازه .

ومن اغرب ما حدث هاتيك الايام قبيل وقعة المجاز مما يدل على مبلغ ما

تمتعت به الجزيرة من سكون وامن وعافية اثر ولاية الحسن بن علي المباركة الطويلة وابنه وشريكه فى الحكم احمد بن الحسن وورد الامر من الخليفة المعز فى المهدية بالاحتفال فى جميع جهات الجزيرة بختان سائر اولاد المسلمين الذين هم فى سن الختان وذلك فى نفس اليوم الذي يحتفل فيه المعز فى المهدية بتطهير اولاده .

احصى الامير احمد الاطفال الذين يجب ختانهم تنفيذاً لرغبة الخليفة فكانوا خمسة عشر الفا وابتدأ الامير بتطهير اولاده واخوته في مستهل شهر المولد النبوي من سنة ٣٥١ ثم ختن اولاد الخاصة والعامة ووزعت الصلاة على سائر المختنين هدية من الخليفة الذى ارسل لصقلية بتلك المناسبة لتوزع على الاطفال مائة الف درهم وخمسين حملا من الهدايا .

ابو القاسم علي

فى سنة ٣٥٨ استقدم الخليفة المعز للمهدية امير صقلية احمد بن الحسن واولاه قيادة اساطيل الدولة لما أظهره من معرفة بفنون قتالها ومهارة فى قيادتها فارتحل الامير احمد من صقلية آخذا معه عائلته وامواله ومتاعه وترك الامر فيها لاخيه ابي القاسم علي بن الحسن .

وكان هذا الامير رحمه الله من خيرة امراء الجزيرة من بنى الحسن عادلا رحيماً شديداً فى الحق مواسيا للفقراء والبائسين قال ابن خلدون وكان عادلا حسن السيرة وقال عنه ابن الاثير وكان عظيم الصدقة ولم يخلف دينارا ولا درهماً ولا عقارا فانه كان قد وقف جميع املاكه على الفقراء وارباب البر واستمرت ولايته السعيدة ١٣ سنة .

تدخل النرمان — فى هاتيك الاثناء والمسلمون في صقلية يجمعون شتاتهم ويرأبون صدعهم وقد امنوا رجوع الروم محاربين بعد ان دحروهم مرات عديدة خلال عشرات السنين كان رجال النرمان قد وطدوا عزمهم على الاستقرار بهاتيك النواحي

ووجدوا فيها المرتع الخصيب وعلموا انهم لامحالة يتمكنون منها بعد جهود ومضى وقت. ابتدأ النرمان اعمالهم بنواحي ايطاليا فاحتلوا مدن ابرنديزى وطارنطة التي كانت مركزاً لامارة اسلامية مستقلة ثم استولوا على جزيرة كرسكا واتخذوا منها مركزاً لاعمالهم ضد المسلمين ، وما كان النرمان يحاربون المسلمين وحدهم بل كانوا يحاربون الجميع على السواء ويريدون ان يبتنوا لانفسهم هنالك ملكا على حساب المسلمين والباباوية والامارات الطليانية ، وعلى حساب المسيحيين الذين جاءوا يزعمون انقاذهم من براثن المسلمين ، ثم هاجموا مدينة رومه نفسها .

رسالة البابا للامبراطور — ارسل البابا ليون التاسع رسالة صور فيها حقيقة الامة النرمانية الى امبراطور القسطنطينية يستنجده ضد هؤلاء الاقوام الوحوش ومما يقوله في رسالته تلك :

« لقد انفطر قلبي اسى مما قصه علي مندوبوا ولدي ارجيروس ؛ فيما يتعلق بفوضى الامة النرمانية وخبثها وسقوطها وازدرائها بالدين زراية بزت زراية الذين لا يؤمنون ، لذلك قد عقدت العزم على تخليص ايطاليا من جبروت هؤلاء الاجانب الذين اندفعوا على البلاد متكالبين لا يحترمون شيئا ويذبحون المسيحيين بعد اذاقتهم انواعا من العذاب الاليم ، ثم انهم ليست لهم اي عاطفة انسانية ، فهم لا يميزون بين كبير ولا صغير ولا بين رجل وامرأة ، وانهم لينتهبون الكنائس المقدسة ثم يحطمونها ويوقدون فيها النيران ولطالما لمت عليهم وشنعت باعمالهم وانذرتهم وحذرتهم عقاب الله ونقمته لكن صدق الحكيم الذى قال : ان من تخلى عنه الله بقي سرمداً فى الشقاء ؛ ولن يرجع الكلام العقل الى المجانين » .

ولم يتلق البابا جوابا من الامبراطور الذى ترك نهائيا امر صقلية وايطاليا ، فاستنجد بالالمانيين الا ان اسقفهم اشار عليه بعدم محاربة رجال ينتسبون الى المسيح فما وسع البابا الا جمع جند باسمه وتحت رايته وحارب النرمانيين فانخذلت جموعه ،

وانكسر ووقع بنفسه اسيراً بين ايديهم ، فتذلل لهم واستغفر ؛ ورفع عنهم حكمه الذى اصدره بكفرهم ؛ وبارکهم فى جهادهم ؛ لكنهم رغم كل ذلك ابقوه اسيراً عندهم عاما كاملا الى ان افتدى نفسه منهم بدفع جعل ذريع .

قال قوسطاف لوبوز فى تاريخه الشهير «مدنيات العرب» عن هذه الفترة من فظائع النرمان ومقابلة رجال الكنيسة لهم بالمثل مانصه :

«واستمر النرمان على اعمالهم اذا ما تمكنوا من كنيسة انتهبوها ثم ذبحوا كل رهبانها ليامنوا عاقبة شكواهم وكان الرهبان يقابلون اعمال النرمان بمثلها اذا ما تمكنوا منهم واليك وثيقة عثر عليها مسيو اريمودرى ، فى خزائن ديرجيل كاسان وهي تعطيك صورة صادقة لعادات ذلك الزمن :

«ذات يوم جاء الكونت رودولف ومعه خمسة عشر من رجال النرمان لكنيسة جبل كاسين فتركوا عند بابها اسلحتهم وخيولهم حسب العادة المألوفة ودخلوا لاداء الصلاة لكنهم لم يحسنوا اختيار الوقت اذ بينما كانوا جاثين على الركب امام مذبح القديس بونوا اوصد رهبان الكنيسة ابوابها واستحوذوا على اسلحة المصلين وخيولهم ، ثم دقوا اجراس الفزع والاستنجاد فاجتمع عليهم الناس من اجوار الكنيسة وهاجموا النرمانيين الذين لم يكن لهم بين ايديهم الا المسابح ، ثم انهم حاولوا عبثاً تذكير المهاجمين بحرمة الكنائس ، وحاولوا كذلك عبثا اقناعهم بالمحرجات من الايمان انهم ما جاءوا الا قصد التبتل والعبادة ومصالحة رجال الكنيسة فان رجال الدين كانوا قد وجدوا الفرصة المناسبة فاغتنموها وقتلوا الخمسة عشر رجلا عن اخرهم ، ولم ينج الا الكونت ردولف وحده ، اذ قد حماه الدير وما اطلق سراحه الا بعد ما ارجع للرهبان كامل اموال وذخائر الدير التي كان قد انتهبها هو ورجاله من قبل »

نتيجة التدخل النرماني — من نكد الدنيا على مسلمى صقلية ، انهم ما كادوا يجمعون

امرهم حول استقلال داخلي واسع النطاق ، ويتولى امر الدولة فيهم رجال كرام من آل الحسن بن علي ، يتوارثون الامارة و يصونون مركزها ولو الى حين من مطامع الطامعين وعبث العابثين ، وما كاد ينتهي تهديد الروم وتحقق نهائيا حملاتهم القوية العنيفة المتوالية ، منذ قرن ونصف القرن، ما كاد يتم كل ذلك بعد طول الجهاد وشديد البلاء حتى كان المسلمون يواجهون خطراً اكبر من هاتيك الاخطار السالفة ويقابلون عدواً اشد عنفاً واقوى ساعداً وافظع اعمالا من اعداء الخارج والداخل مجتمعين ، ذلك هو الخطر النرماني الذى ما زال بتلك الجزيرة حتى انهك قواها واسقطها مجندلة تحت مخالبه المفترسة .

فكانت سائر ايام الدولة الحسنية بصقلية ، انقضت الى جانب اعمال باهرة في ميدان العمران بالداخل ، فى حرب مستمرة عنيفة متوالية مع رجال النرمان المغيرين وقبل ان ندرس تفاصيل هذه الحروب والمعامع في الصفحات التالية نرى ان نسجل حكما اصدره على هذه الفترة المؤلمة وعلى اعمال النرمان فيها المؤرخ الاكبر الدكتور قوسطاف لوبون حيث قال :

« أخذ هؤلاء المدافعون عن الدين المسيحي ، يتفانون في اعمال السلب والنهب سعياً وراء الثروة ، اكثر من تفانيهم في الدفاع عن الدين و كانوا ينتهبون ارزاق اليونانيين و الطليانيين والمسلمين بقسوة وشراسة متساوية فبقيت صقلية و بلاد ايطاليا المجاورة لها مدة خمسين عاماً اي مدة الفتح ، تعتبر فى نظر هؤلاء المدافعين عن الدين المسيحى ، بلادا وهبها الله لهم كي يكتسبوا فيها الثروة والغنى بكامل السهولة والبساطة .

« وما كان لاعمال هؤلاء المدافعين عن المسيحية من نتيجة ، الا خراب الجزيرة بصفة سريعة ، حتى ادرك اهلها (المسيحيون) ان صداقة فرسان النرمان لهم كانت اثقل وطأة عليهم من عداوة المسلمين »

الفاطميون بمصر — لم تكن الدولة الفاطمية التي درجت بين احضان كتامة بارض المغرب لتكتفي بما نالته من عزة وسلطان في بلاد الشمال الافريقي، حتى حدود برقة ، بل كانت ترمي بانظارها الطامعة صوب بلاد الشرق ، تريد ان تقيم على انقاض الخلافة العباسية الواهية ، وعلى انقاض الدويلات الاسلامية التي صيرت الشرق الاسلامي رقعة شطرنج بائسة دولة شيعية علوية تضم تحت لوائها ما فرق امره بنو العباس بضعفهم وتخاذلهم وتغلب الموالي والدخلاء على دولتهم .

كيف كان العالم الاسلامي والعربي يومئذ ، والحرب الصليبية الاولى تتقد في صقلية وايطاليا نيرانها ، والحرب الصليبية الثانية التي يدعوها المؤرخون غلطا الاولى تختمر في افكار رجال التعصب المسيحي ؟

كانت بغداد واكثر بلاد العراق وفارس تحت حكم دولة بني بويه التركمانيين الذين لم يتركوا للخلافة الا الاسم وجلال اللقب ؛ وكانت مصر واكثر بلاد الشام في يد بني الاخشيد ، والموصل وديار بكر ، في يد بني حمدان ؛ وخراسان وبلاد التركمان وراء النهر في يد بني سامان ، وطبرستان وجرجان في يد ملوك الترك الديلم ، واليحرين واليمامة والكثير من جزيرة العرب في يد القرامطة .

اما الغرب الاسلامي فقد كان زاهراً يانعا في الاندلس ، تحت سلطان الامويين ؛ يواجه الحملات المسيحية في ذلك العهد بجهوده الخاصة (١)

---

(١) كان يتولى الخلافة يومئذ بالاندلس الحاكم بن عبد الرحمان الناصر ؛ وبلغت الحضارة في عصره شأوا بعيدا ، وقد كان مغرما بجمع الكتب فارسل النساخين لكل بلاد كي ينقلوا له كل المؤلفات الحديثة فتوفر له عدد في مكتبته لم يتوفر مثله لملك من قبل وجعلها مكتبة عامة في قصر مروان ، ولها خدمة وقيمون وام قرطبة جمع غفير من الادباء والعلماء ورجال الفن من سائر الاصقاع ، وبلغت عندئذ مدنية الاندلس الاسلامية اوج عزها ومنتهى ازدهارها .

رأى المعز لدين الله الفاطمى ان ساعة الضربة الحازمة قد آنت ، فارسل قائده جوهر الصقلي او الصقلبي على رأس جند عتيد من المغاربة ، وقد كان اهل مصر راسلوا المعز ورغبوه فى فتحها ونصب سلطانه عليها تخلصا من مظالم بني الاخشيد والاضطرابات المتوالية فحط جوهر اثقاله تجاه مدينة الفسطاط ففتح له اهلها الابواب ودخل مصر دون قتال ولاعناء ، وذلك فى رمضان سنة ٣٥٨ ، فخطب في مسجد عمر بن العاص للخليفة المعز ؛ ودانت له سائر الناس ، ثم سير القائد البربري جعفر ابن فلاح الكتامى ، فاجتاز الى ارض الشام ومعه جند عتيد فافتتحها وخطب فيها للمعز واصبحت الدولة الفاطمية تمتد من ساحل المحيط الاطلسي الى ضفاف الفرات .

ثم اختط جوهر الصقلي مدينة القاهرة المعزية ، (وانما دعاها القاهرة لانه وضع اسسها عند توسط كوكب المريخ المعروف عند العرب بالكوكب القاهر) فابتنى فيها الدور والقصور ، واسس الجامع الازهر الشريف سنة ٣٥٩ ، واتمه سنة ٣٦١ ثم سار المعز ومعه حاشيته ورجال دولته والقناطير المقنطرة من امواله فدخل مدينة القاهرة فى رمضان سنة ٣٦١ ؛ واتخذها مقراً لخلافة الفاطميين العبيديين ؛ حيث مكثت هنالك الى ان انقضت ايامها سنة ٥٦٧ ، بموت العاضد لدين الله وقيام الدولة الايوبية على يد بطل الاسلام الخالد الذكر صلاح الدين الايوبي الكردى .

كان انتقال مركز الدولة من المهدية الى القاهرة ، حدثا من اكبر الاحداث فى تاريخ صقلية الاسلامية حيث ان الخليفة قد عين لولاية المغرب احد رجاله المعدودين هو الامير يوسف بولقين بن زيري بن مناد ؛ رأس قبائل صنهاجة البربرية العتيدة ؛ ولم يجعل له سلطة فعلية على صقلية ، فبقيت الجزيرة تابعة رسميا لمركز الخلافة بالقاهرة البعيدة الناظرة لآفاق اخرى ؛ انما كانت مستقلة بصفة فعلية تحت امرة الملوك من بنى الحسن ابن علي ؛ وكان ذلك من جملة اسباب

تدهور الحكم الاسلامي ، اذ كانت دولة صنهاجة مستقلة بتوطيد ملكها وتوسيع عمرانها وتدعيم مدنيتها التي بلغت اوج منعتها وعلاها ايام المعز ابن باديس وكانت دولة الفاطميين في القاهرة تنظر الى الشرق ولا تكاد تنظر الى الغرب ؛ وبذلك خلا الجو لوحوش النرمان يفترسون كما شاءوا مسلمي الجزيرة حتى اذا ارادت دولة صنهاجة امدادهم وانقاذهم كان الخطب قد اتسع على الراقع ، وتدهورت الدولتان معا ؛ دولة صقلية على يد النرمان ودولة صنهاجة على يد الاعراب من بني هلال وسليم .

ولنرجع الآن — بعد هذين التمهيدين — لدولة ابي القاسم علي ، المعروف بالشهيد ، ولنسجل في هذه الصفحات اعمالها :

استمرار الفتح — في سنة ٣٦٥ (٩٦٨) سار الامير ومعه جماعة من العلماء وكبار القوم على رأس قوة عتيدة لمنازلة مدينة مسينا التي كان العدو قد اتخذها مركزا لاعماله ضد المسلمين ، فنصب الحصار على تلك المدينة الى ان ضاق اهلها ذرعا فخرجوا يسألونه الامان ويعلنون الطاعة فاجابهم للصلح رحمة بهم وتقاضى منهم مال الجزية .

ثم سار يوالي فتح ما استولى عليه الفرنج من ارض الجزيرة وقلورية فافتتح مدينة اغاثة Santa Agata وغنم جميع ما اعده المسيحيون فيها .

ثم امر سنة ٣٦٦ بتجديد بناء مدينة رمطة ، وقد كان حطمها الامير احمد بن الحسين ، كيلا تكون مركزاً للمسيحية ، وفي تلك السنة سار على راس المسلمين الى مدينة طارنطة في جنوب ايطاليا ، وقد اتخذها النرمان مركزاً لاعمالهم وقرصنتهم فتحصن المسيحيون بها ، واستعدوا للنزال ، وهاجمهم المسلمون بقوة وعنف فاقتحموا الاسوار وكسروا الابواب ، وافتتحوها عنوة واقتداراً واصدر الامير امره بهدك جدرانها ، واعفاء مراسمها ، كيلا تكون داعيا لرجوع العدو مرة اخرى ومركزاً

لاعماله ضد المسلمين .

انتصار قلورية واستشهاد الامير — بينما كان زعيم النرمان برودويل يستعد لمقارعة المسلمين ويحتل بعض المواقع على السواحل الصقلية ؛ نزل الامبراطور الالمانى اوطون الثاني يوطد ملكه بالبلاد الطليانية ، فيحتل روما ويصمد لمقارعة المسلمين ولقد خشي الروم زوال سلطانهم وانتهاء نفوذهم على يد الالمان فاستصرخوا المسلمين بصقلية فهب الامير ابو القاسم للقاء جموع الالمان والنرمان واراد المبادرة باحتلال كسنته مركز المسيحيين المنيع، وكان هؤلاء قد استعدوا للقائه فى بلاد قلورية فدارت المعركة العنيفة الهائلة فى موقع غير ملائم للمسلمين بمضيق بين جبلين يمكن للنصارى ان يحدقوا فيه بالمسلمين من كل ناحية فرأى ابو القاسم وجوب الانسحاب فوراً ليتلقى صدمة النصارى في منبسط من الارض يمكنه فيه ان يدير حركاته بكل حرية

لكن النصارى لم يتركوا المسلمين فسحة من الوقت لانجاز تلك العملية وتتبعوهم بشدة وعنف فكاد الانسحاب الجزئي ينقلب انهزاما كلياً واستمر ذلك التتبع مدى خمسة عشر يوما حتى وصل المسلمون الى مكان فسيح عند ساحل البحر وتكاثر عليهم جند الفرنج ، واحاطوا بهم من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة منهم قلب المعسكر الاسلامي حتى بلغت مكانا اتخذه الامير ابو القاسم مقراً لقيادته وقد كان راكبا جواده وحوله خاصة رجاله ، فاقتتل الجميع هنالك ، وضرب احد جنود الالمان الامير ابا القاسم ضربة هائلة من سيفه شقت هامته وخر رحمه الله صريعا شهيداً على شاطيء البحر واستمرت المعركة عنيفة هوجاء ولم يعلم المسلمون ولم يعلم النصارى ما حل بالملك المسلم الشهيد .

ثم اجتمعت ميمنة المسلمين وميسرتهم حول القلب فسدوا الثلمة التي احدثها النصارى هنالك ، وقاموا فى الحين بهجوم مضاد ادهشت شدته جموع النصارى فانقلبوا على اعقابهم وتتبعهم المسلمون يثخنون فيهم قتلا ، واستولوا على سائر

محلات المنهزمين وعددهم وسلاحهم ، واسفرت المعركة عن قتل اربعة آلاف من الفرنج وجرح الامبراطور اوطون جرحا ادى الى موته فى دسامبر ٩٨٣ بعد ان التجأ منهزما خائبا الى رومة (١) .

ثم حمل المسلمون جدث اميرهم الكريم فنقلوه الى صقلية حيث ووري التراب ، رحمه الله رحمة واسعة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٧٢ (٩٨٤) .

جابر بن ابي القاسم علي

اجمع الناس يومئذ على نصب ابنه جابر ؛ اميرا مكانه ، علّه يقتفي خطى والده الموفقة ؛ لكن الولد لم يكن هذه المرة نسخة من ابيه ؛ وهل تلد النار الا الرماد ؟ فان جابرا ترك امر الجهاد وتدبير الملك واشتغل باللذات حسب عبارة ابن خلدون واضطربت احواله .

ولم يكن الخليفة الفاطمي فى مصر قد اعترف بهذه الولاية ولم يقرها بعد فاجتمع جند صقلية واهل العقد والحل فيها ؛ واعلنوا خلع جابر وترقبوا قدوم ابن عمه الوالي الجديد الذى عينه الخليفة الفاطمي :

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي

كان من نخبة الامة ، وعلية القوم وكان من اصحاب الرأي والتدبير والمكانة السامية فى بلاط الخليفة العزيز بالله ابن المعز لدين الله ، وقد كان الوزير ابن كلس يغار من جعفر ويحسده على مكانته ، فعندما جاء الخبر باستشهاد الامير ابي القاسم علي اشار ابن كلس على الخليفة بتولية جعفر بن محمد مكانه ؛ يريد بذلك ابعاده عن البلاط والتخلص من نفوذه .

---

(١) يقول بعض مؤرخي الفرنج ان المسلمين اسروه ولم يعلموا انه الامبراطور ثم اطلقوا سراحه مقابل مال جزيل افتدى به نفسه ؛ بينما يقول آخرون انه نجا من الاسر بفضل سفينة رومية امكنه الالتجاء اليها .

قبل جعفر الولاية وهو كاره لها ، وسار الى صقلية أخذاً معه اليها القائد التركي سبستكين الذى كان حسب عبارة ابن الخطيب فى اعمال الاعلام من جملة الترك الموصوفين بالشجاعة .

وصل جعفر صقلية يوم الاربعاء ٢٥ صفر سنة ٣٧٣ ، فسلم له جابر الامر عن طيب خاطر بعد ان حكم حكماً خائراً مدة سنة ؛ واستبشر الناس خيراً بولاية جعفر الذى سبقت شهرته طلعته ومهدت سمعته له الامر ؛ حسنت الاحوال ، واستقامت الامور وانزوى رجال النرمان اثر هزيمتهم الشنعاء السالفة ؛ فاخذ جعفر يصلح ما فسد ويرمم ما تهدم ويعمر البلاد وقد جمع حوله ثلة صالحة من رجال العلم والادب وكون في قصره ببالرمة بلاطاً ملوكيا فاخرا ؛ وكان رحمه الله من فرسان الميدان فى الشعر والادب والعلوم .

من اجل جارية يخرب ملك — كانت للخليفة بالقاهرة جارية صقلية عزيزة عليه محببة اليه ، وكان اخوها راهبا في البلاد الصقلية ذا مكانة وملك فبلغت الجارية من قلب الخليفة الضعيف مبلغا جعلته يقبل مطالبها ، ويذعن لمنيتها ، فيرسل الى جعفر امير صقلية ، يامره بان يرجع للراهب اخى جاريته ، فلاء: بنقش ، وطبرمين ورمطة ؛ وان يرجع اليه مع ذلك كل سبي عنده قديم وحديث من تلك البلاد وبعد شهر من ورود امر الخليفة ، جاء الراهب صقلية ، يستنجز الامير تنفيذ ما امره به خليفة القاهرة .

علم جعفر انه ان نفذ ذلك الامر فكانه قد نفذ حكم الاعدام على الجزيرة لأنه سيمكن النصارى من قاعدة ما استطاع المسلمون تحطيمها الا بعد جهاد مأية عام وعظم عليه كذلك ان يعلن عصيان الخليفة ، ويرفض تنفيذ امره ، انما عظم عليه اكثر من ذلك ان يخرب ملكا من اجل جارية فعمد الى حيلة الاريب وسياسة

الداهية فانقذ صقلية من الخطر واحرز على رضى الخليفة فى آن واحد واليك البيان :

انزل جعفر الراهب الملك فى قصر واحاطه بالعيون ، ومنع عنه الاجتماع بمن يريد من الناس وابقاه كذلك نحوا من اربعة اشهر ثم تظاهر انه يريد تنفيذ الامر المطاع فجمع للراهب ، بصفة سبي يجب ارجاعه ، جماعة من الشيوخ والعجائز والمرضى ، واصحاب العاهات ، فدفعهم اليه وامره بالرحيل بهم حالا فضاق الراهب بذلك ذرعا ؛ وما وسعه الا الفرار سراً من صقلية والذهاب الى القسطنطينية ومن هنالك راسل الخليفة العزيز واعلمه بان عامل صقلية لم ينفذ الامر .

كان جعفر يعلم ان الراهب سوف يوالى دسائسه وان الآمرة الناهية في قلب العزيز ستستعمل اقصى جهود المرأة المدالة ، للوصول الى غايتها ، فبادر ، انجازاً للحيلة ، باقتناء مركب اندلسي شحنه من ماله بسائر تحف الاندلس وطرائفها وكتب للخليفة يقول ؛ ان ابن ابي عامر المعروف في التاريخ باسم الحاجب المنصور صاحب الامر ببلاد الاندلس ، قد راسله يرغب اليه امر الدعوة الاموية ، ويدعوه للانضواء تحت لوائها وانه يرسل له من خيرات الاندلس ويقطعه من اعمالها ماشاء وانه هاداه بالمركب المشحون بالنفائس الثمينة ترغيباً له لكنه امتنع من قبول تلك الدعوة وأصر على ولاء الفواطم بالقاهرة .

انطلت الحيلة على العزيز ، فبادر بمراسلة العامل الصقلى يشكره على امتناعه مما دعاه اليه زعماً صاحب الاندلس ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد ابوه وحسين جده وبقية آل الحسن من الطاعة والولاء .

وأعرض الخليفة بعد ذلك عن اجابة مطلب الراهب ، والانقياد لرغبة المحبوبة فذهبت جهود الاخت واخيها سدى وكفى الله المؤمنين القتال ، بواسطة السياسة والدهاء .

واستمر الامير جعفر يحكم صقلية حكماً عادلا نزيهاً ، والامة مقبلة على اعمالها

واعداء الخارج راكدون ، واعداء الداخل نائمون ، الى ان توفاه الله ، بعد سنتين من ولايته ، سنة ٣٧٥ .

عبد الله بن محمد بن الحسن بن على

بايع الناس بالامارة بعد جعفر ، شقيقه عبد الله فحقق الامير الجديد آمال الامة فيه وسار سيرة شقيقه الصالحة ناصحاً امينا ، مقيماً للعدل ، رحيماً بالرعية ، ولم تطل ايامه فى الملك اذ وافاه الاجل يوم ٢٣ رمضان سنه ٣٧٧ .

أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد

ولي الامر ، بارادة الامة ، بعد ابيه ، وكان غلاماً انما توهم الناس فيه خيراً فوجدوا فيه خيراً ، وكان حسب كلمة ابن خلدون « قد انسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم . »

وقد وصله سجل الولاية من الخليفة بالقاهرة ومنحه لقب ثقة الدولة وكانت ايام الناس فى مدته ، كما يقول ابن الخطيب فى اعمال الاعلام ، على افضل ما يشتهون وقد ضبط البلد ضبطاً محكماً ، وظهر من كرمه وجوده وسماحته ، مالا يفي به وصف ، وعم العدل والرخاء والامن والاطمئنان سائر جهات الجزيرة ، ولم يتحرك في وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها .

قال الشاعر الكبير ابو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة يمدحه من قصيد طويل :

اغر ، قضاعي يكاد نواله ... لكثرة ما يدعو الى الشكر يجحف
اذا نحن اخلفنا مخائل ديمة ... وجدنا حيا معروفه ليس يخلف
ويقظان شاب البطش باللين فالتقى ... بكفيه ما يرجى وما يتخوف
حسام على من ناصب الدين مصلت ... وستر على من راقب الله مغدف
يسايره جيشان : رأى وفيلق ... ويصحبه سيفان : عزم ومرهف

مطل على من شاءه فكانما على حكمه صرف الردى يتصرف
يرى رأيه ما لا ترى عين غيره ويفرى به ما ليس يفرى المثقف
رعى الله من ترعى حمى الدين عينه ويحمى ربى الاسلام والليل اغضف
ومن وعده فى مسرح الحمد مطلق وايعاده فى ذمة الحكم موقف
ومن يضرب الاعداء هبراً فتنثنى صناديدهم و البيض بالهام تقذف
رماهم بمجر ضعضع الارض رزه كأن الروابى منه بالنيل تدلف
كأن الرديفيات فى رونق الضحى اراقم فى طام من الآل ترجف
يعود الدجى من ليله وهو ابيض ويبدو الضحى من نقعه وهو اكلف
ويحجب نور الشمس بالنقع عنهم ففعل الظبا فى هامهم لا يكيف
لهم كل عام منك جاوز فيلق يسائل عنهم بالعوالي فتلحف
اذا ماطووا كشحا على قرح عامهم ويلوا من الآلام انشات تقرف
فكم من اغم الوجه عار تركته وهاديه عتنون ولحيه اكثف
لعمري لقد عاديت في الله طالبا رضاه وقد ابليت ما الله يعرف
فطالبتهم في الاهل حتى تركتهم فرادى وفي الاديان حتى تجففوا
فيا ثقة الملك الذى الملك سهمه يراش لاكباد الاعادي ويرصف
... وقائلة بالسعد نجلك جعفر فيا لك من عيد بملكين يتحف
فمازلت تستجدى فتولى وترتجى فتكفى وتستدعى لخطب فتكشف

اثناء ولايته ، مات في بلبيس بمصر سنة ٣٨٦ ؛ الخليفة العزيز بالله ، وتولى الخلافة بعده اشقى عباد الله وشيطان الخلفاء الرجيم الحاكم بامر الله ؛ فاستوزر الحسن بن عمار بن علي ، وهو ابن عم امير صقلية المصلح العظيم .

صفحة سوداء فى تاريخ الفاطميين — ارى ان اذكر هنا استطراداً ، وقد جرنا الحديث لذكر الطاغية الحاكم بامر الله ، شيئا من سيرة هذا الجبار العنيد

انرى الى حد انحطت اخلاق المسلمين فى الشرق وماتت قوتهم المعنوية وبلغت بهم المذلة والمهانة ، حتى صبروا لحكم كافر جبار ، فاسق فاجر ؛ فكأنهم هم الذين خاطبهم معروف الرصافى رحمه الله بقوله:

عجبت لقوم يخضعون لدولة بسوسهم بالموبقات عميدها

واعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

فكان يامر ببناء الكنائس والمساجد والبيع ، ثم اذا ما تم بناؤها امر بهدمها على رؤوس من فيها ؛ ثم ادعى انه صورة الله ، وان روح الله حلت فيه ، فامر بان يقف الناس اجلالا لاسمه عندما ينطق به الخطيب في صلاة الجمعة ، فاطاع الناس من نذالتهم امره حتى فى الحرمين الشريفين ، وامر بهدم كنيسة القيامة فى القدس الشريف سنة ٣٩٧ (١٠٠٩) فاحدث بذلك رجة هائلة فى العالم المسيحي كله ، مع ما يصحب ذلك من المبالغات الشعبية ، واذكى بذلك ناراً كانت تتقد استعدادا للحروب الصليبية ، وادعى ذلك الفاسق الشرير الظالم السفاك للدماء انه يعلم الغيب مع الله ؛ فوضع له رجل على المنبر هذين البيتين :

بالجور والظلم قد رضينا وليس بالكفر والحماقة

ان كنت اوتيت علم غيب بين لنا كاتب البطاقة

وما انجى المسلمين من شروره وآثامه الا اخته ، وويل لامة تعمل امرأة واحدة فيها مالا يعمله سائر الرجال مجتمعين ؛ ويقال انه اراد منها منكراً فدست له فى جهة حلوان من قتله عندما كان يترصد النجوم وذهبت روحه الشريرة الى نقمة الله وعذابه السرمدى .

فليقابل الناظر بين هذا الملك الطاغية ، وما عاناه مسلمو المشرق في نذالة وضعة واستكانة فى ايامه وبين ما كان مسلموا صقلية يتمتعون به من امن ورفاهية واطمئنان .

وان اردت ان تعرف مدى ما الصق بالدين فى هذا العهد المظلم من خرافات واباطيل وبدع منكرة صيرت الاسلام نوعاً من الوثنية او شراً من الوثنية ، فاسمع لابن ابى دينار يقول فى كتاب « المؤنس » :

« وكان بعض شيعته من المغاربة يزعم انه يعود فكانوا اذا راوا سحابة في الجو سجدوا لها زعما منهم انه في السحاب » .

تاج الدولة جعفر بن يوسف بن عبد الله

استمر الامير يوسف ، يدير امور صقلية ادارة عادلة رحيمة ، الى ان قضى الله عليه بداء الفالج ، اصابه سنة ٣٨٨ (١٠٠٠) فعطل جانبه الايسر ، واتفق الناس معه على تسليم امر الدولة ، لابنه جعفر ، ففعلوا ووضعوه على كرسى الامارة وراسلوا بذلك طاغية الفاطميين بالقاهرة الحاكم بامر الله فصادق على ذلك وارسل لجعفر سجل الامارة واعطاه لقب « تاج الدولة سيف الملة »

ثورة علي — فى ايامه انتهى عهد النظام والامن والرفاهية وابتدأ عهد التدلى والسقوط الذي انتهى بزوال سلطان المسلمين من الجزيرة ووقوعهم تحت سلطان النرمان .

رأى علي بن يوسف انه احق بالامارة من اخيه فاستمال اليه جماعة من البربر الذين يتبعون كل ناعق ابتغاء الفتنة وجماعة من العبيد وتصدى لمحاربة اخيه .

جمع جعفر جموعه وخرج للقاء الأخ الخائن فاشتعلت الحرب بين الاخوين وتمكن جعفر من اخيه الغادر فقتله وقتل من نصره من البربر والعبيد ثم امر بنفي جند البربر اجمعين من صقلية فنفوا منها وامر بقتل سائر العبيد وجعل جنده من اهل صقلية المسلمين خاصة فقل بذلك حسبما يرويه البكري جنده وسبب له انهيار ملكه .

ثورة الامة — كانت سيرة جعفر اول امره حسنة مقبولة الى ان استوزر كاتبه

حسن بن محمد الباغائى وكان فظاً غليظ القلب وسلم له السلطة واطلق يده فى الاعمال فاستخف هذا الوزير الوصولي باعيان الامة وشيوخ البلاد وقوادها وامعن في اهانتهم وسلك سياسة اقتصادية تخالف ما الفته البلاد ففرض الجباية والاعشار على طعام الناس وثمارهم وكانت عادتهم من قبل ان يدفعوا عن كل زوج بقر شيئاً معلوما قلت محصولاتهم او كثرت ؛ ولو انه احسن المعاملة واخذ الناس بالحسنى وخاطبهم باسم الدين لكانت سياسته انجح وخطته اوفق لأنها اقرب للزكاة الشرعية مما سار عليه اهل صقلية . لكن الغلظة وسوء الطباع لاتثمران الا الفتن والقلاقل ولقد خاطبه القوم فى الامر فاستغلظ عليهم فثارت البلاد ثورة عامة سنة ٤١٠ وحاصر الناس قصر الوالى واشرفوا على اخذه .

عندئذ امر الشيخ العجوز المصاب بالفالج الامير يوسف والد الامير جعفر ان يحمل على محفة وان يخرج للقاء الثائرين فلما رآه هؤلاء وكانت له مكانة عظمى في القلوب اشفقوا عليه ورثوا لحاله فخاطبهم في شأن ابنه جعفر فاشتكوا من شدته وسوء تدبيره وتدبير وزيره ، وطلبوا منه ان يعزله وان يولي عليهم ابنه الآخر احمد الاكحل فلباهم الى ما طلبوا واعلن عزل جعفر وتولية احمد ففرح الناس بذلك واستبشروا به خيراً ، وانتهى امر الثورة بسلام .

ثم ان يوسف خاف ان يصاب ابنه جعفر بمكروه ، او ان تسول له نفسه القيام على اخيه فجهز له مركبا حمله مع آله واملاكه الى مصر ؛ وبعد قليل التحق به ومعه من الاموال ٦٧٠ الف دينار ، وقد كان ليوسف من الدواب ثلاثة عشر الف حجرة دون البغال ؛ ومات رحمه الله بمصر وليست له دابة واحدة . ومن هذا العدد الجسيم ، ومن مقدار ما حمله معه من المال الى مصر تدرك مدى الثروة الجسيمة التى بلغها اهل صقلية فى منتهى ذلك العصر الزاهر .

خسارة جنوب ايطاليا — كان جعفر قد اخذ يوالى الفتح فى جنوب ايطاليا

عند ولايته ؛ فاحتل كالياري وبيزه سنة ٣٩٠ (١٠٠٢) ثم انه في سنة ٣٩٢ (١) هاجم مراكز المسلمين دوج البندقية « ارسولو » وافتك منهم مدينة باري ، عاصمة الامارة فخسروها نهائيا ، وحلت بالمسلمين نكبة فى مدينة رجيو حيث خسروا اسطولهم .

ولقد اعادوا الكرة واحتلوا سنة ٣٩٧ (١٠٠٩) مدينة كوسترا Cosenza لكنهم لم يستطيعوا هنالك ثباتا ؛ وكانت حوادث الثورة ضد جعفر ، وارجاعه البربر لافريقيا قد اضعفت الجند وقللت من عدده ، فاضطر المسلمون لاخلاء قلورية مرغمين تحت ضغط القائداورسيت ؛ وذلك سنة ٤١٤ (١٠٢٦) ايام احمد الاكحل السوداء .

الهجرة الى صقلية — اثناء تلك الحوادث ، وفى سنة ٣٩٥ ، وقعت بالبلاد الافريقية مجاعة هائلة وقحط شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادي واكثر الحواضر ، وخلت الاسواق والمساجد وعدمت البهائم وضاقت الارض بما رحبت فيمم الناس شطر صقلية ؛ وسارت اليها المراكب يتلو بعضها بعضا حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم ، ومن سكان الحواضر والبوادى ، فتقبل امراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وافسحوا لهم مكان العيش ويسروا لهم اسباب الارتزاق .

استطراد عن اعمال المسلمين بجنوب ايطاليا

ارى من المفيد تعريب الفصل الثاني من كتاب « غارات الهمج » تاليف المؤرخ

(١) فى هذه السنة توفي ببلاد الاندلس بطلها العصامي الكبير محمد بن ابي عامر ، الملقب بالحاجب المنصور ؛ الذي نالت بلاد الاندلس فى ايامه عزة وسلطانا قلما بلغتهما دولة ؛ ودامت ايامه فى حكم مستبد عادل ٢٦ عاما غزا خلالها اثنتين وخمسين غزوة ، كان النصر فيها حليفه .

الكبير فرديناند لوط وقد حوى خلاصة وافية عن تدخل المسلمين فى البلاد الطليانية:

كانت مدينة نابولى قد اضطرت تحت ضغط الدوق سيكار امير بينيفانت ان تدفع جزية له وما قبل اهل نابولى امضاء المعاهدة التي عرضت عليهم سنة ٨٣٦ الامكرهين وجلين ولقد استغاثوا امبراطور الفرنج لويس الناسك فلم تجد استغاثتهم اذنا صاغية عندئذ اتجه الامير اندرى دوق مدينة نابولى نحو مسلمى صقلية يستنجدهم فلبوا دعوته وانجدوه واضطر واخصمه اللومباردى للانسحاب سنة ٨٣٧ ثم اعاد المسلمون الكرة بحراً واحتلوا مدينة ابرنديزى وما انسحبوا منها الا بعد ان تركوها طعمة للنيران .

اخذ المسلمون يوالون التقدم لحسابهم الخاص فاحتلوا مدينة «طارنطة» رغم محاولة اهل البندقية الدفاع عنها ثم تمكنوا من مدينة «انقونة» ورات البندقية يومئذ انها مهددة فعلا فاخذت تتسلح وتتجهز لكن اسطولها غلب وانهزم تجاه أسطول المسلمين سنة ٨٤٢ .

ولقد كان موت سيكار الآنف الذكر سنة ٨٣٩ مساعداً للمسلمين على انتصاراتهم الباهرة ؛ اذ ان المملكة اللومباردية الكبرى قد انقسمت على نفسها اثر موت عاهلها وتألفت على انقاضها مملكتا بينيفانت وسالرنة ، وكانتا مرتعا للفتن التي يثيرها الطامعون فى الملك .

وما كان لهؤلاء الطامعين من معين يعتمدون عليه الا جند المسلمين يستنجده مرة بعد اخرى احد الطامعين ضد خصمه ، ومن هذا القبيل ان الامير راد لشيس البينيفانى قد استعان بالمسلمين ضد خصمه الامير سيكونولف السالرنى ؛ كذلك كان كونت مدينة (باري) الامير باندو قد فتح لهم ابواب مدينته ، ولم يكن النجاح حليف المسلمين فى نصرة هذا الامير ، فقد انهزموا ورجعوا لمدينة باري فتمكنوا من اكتنافها واصبحت لهم طيلة ثلاثين سنة مركزا هائلا يباشرون منه

اعمالهم وغاراتهم ؛ ولقد اضطر راد لشيس ان يفتح ابواب عاصمته بينيفانت فى وجه حلفائه الاشاوس ؛ وكان المسيطر الحقيقي على تلك الامارة هاتيك الاوقات هو زعيم المسلمين « مصعر » وذلك ابتداء من سنة ٨٤٢ .

ارتأى يومئذ الامير سيكونولف ان يقاوم مسلمي صقلية بجموع من مسلمي اسبانيا وجنوب فرنسا وحتى المسلمين الذين افتتحوا جزيرة اقريطش عام ٨٢٦ ؛ وهكذا تمكن من افتكاك مقاطعة بيفنتان من بين يدي خصمه لكنه لم يستطع الاستيلاء على العاصمة (باري) .

في اليوم الخامس عشر من شهر جوان سنة ٨٤٤ وقع تتويج الامير لويس ، ابن الامبراطور لوثير ملكا على ايطاليا وكبرت الآمال فى رؤية هذه البلاد موحدة القوى بصفة كانت فى اشد الحاجة اليها ؛ لكن الملك الشاب واجه الفوضى العميقة التي كانت قد ضربت اطنابها في البلاد ؛ ثم ان المملكة قد ذاقت الامرين من جراء تهاونها بامر الاسطول الحربى .

ذلك ان البحر الابيض المتوسط كان يومئذ بحيرة اسلامية خاصة ولم يكن أي اسطول من اساطيل المسيحية يستطيع ان يعترض لاعمال السفن الاسلامية فى غاراتها وفى انزال الجند بصفة متوالية فى مختلف السواحل .

اتسعت اعمال الاسطول الاسلامي وعمت السواحل الطليانية ، فعمد دوق مدينة نابولي الامير سيرج لجمع قوى امارات نابولي وقايت وامالفى وسورنته ليتمكن من مقاومة تلك الغارات ؛ لكنه لم يستطع منع المسلمين من احتلال جزيرة ايتسيا وراس سورنته والتمكن منهما .

فى سنة ٨٤٦ وقع الخطب الجسيم الذى تزلزل له العالم المسيحى لوعة واسى وذلك ان اسطولا اسلاميا يشمل ٧٣ سفينة ، كان قد اقلع من افريقيا واستولى على مدينة اوستى عند مصب نهر التيبر ، ثم اجتاز ذلك النهر حتى ارسى تحت جدران

مدينة رومة يوم ٢٦ اوت من تلك السنة .

لم تكن لدى المسلمين يومئذ قوة كافية تمكنهم من مناجزة رومة القتال ومحاولة احتلالها ، فانتهبوا كنيستي القديس بطرس والقديس بولس ، وهما خارج الاسوار وانتهكوا حرمة قبور القديسين ؛ وما تركوا تلك الاصقاع مثقلين بالغنائم والاسلاب الا عندما اصبحت خالية من الزاد اللازم لهم .

ذهبوا على الأثر يحاصرون مدينة قايط ، ولم يستطع الفرنج ولا اللومبارد صدهم عن ذلك فكانت خيبة المسيحيين متوالية ، لكن مدينة قايط قد تصلبت فى الدفاع وما انقذتها الا عاصفة هوجاء اتلفت اغلب سفن الاسطول الاسلامي .

مهما كانت امبراطورية الكارولبين (خلفاء شارلمان) قد سقطت فى مهاوى الانحطاط فانها لم تكن قادرة على عدم التدخل ومحاولة وضع حد لهذه الحالة اذاك اتفق الامبراطور لوثير وابنه لويس ملك ايطاليا وباشرا تحصين الجهة التى يلتقي فيها نهر التيبر بالبحر وذلك دفاعا عن كنيسة القديسين ضد غارة اسلامية اخرى كما وطدا عزمهما على مهاجمة المسلمين الذين استقرت اقدامهم في مملكة البيفنتان واستصرخا رجال المسيحية لاعانتهما على ذلك واستقر القرار اخيراً على ان الجند الاصلي المؤلف من الفرنج وجهات بورغوينا وبروفنسا (بالبلاد الفرنسية) يجتمع عند مدينة بافيا يوم ٢٥ يناير ثم يقصد مدينة لارينو حيث يجد العمارة البحرية البندقية وجند دولة البابا وفى تلك الاثناء يجب على اسقف مدينة اريزو ومركيز مدينة اسبوليت ودوق مدينة نابولى ان يحاولوا جميعا اصلاح ذات البين بين امراء بلاد بينيفانت المتخاصمين .

نجحت هذه المحاولة وكللت بالفوز وتمكن الخلفاء المسيحيون من استخلاص مدينة بينيفانت وهنالك وقع القضاء على كامل الحامية الاسلامية وزعيمها الامير مصعر (١)

(١) يقول مؤرخو الطليان ان مصعر هاجم مرة مدينة ايزرينا وقبل ان يصلها

ثم اقتسم الاميران راشلديس وسيكوقولف كامل بلاد ايطاليا الجنوبية وتعاهدا على ان لا يركن احدهما لجانب المسلمين ضد خصمه مرة اخرى وتم كل ذلك سنة ٨٤٧ .

بقيت يومئذ بين ايدى المسلمين مدينة « باري » يبعثون منها غزاتهم وسراياهم فتولى رهبان « ديركاسان » نشر الدعوة لمحاربتهم واقنعوا الملك الويز الثاني بوجوب ذلك فهاجم المسلمين وغلبهم سنة ٨٥٢ الا انه لم يستطع او لم يرد احتلال مركزهم مدينة « بارى » .

على ان قرصان المسلمين كانوا هاتيك الاوقات يقضون مضاجع السواحل الشرقيه فاحتلوا مدينة لونى وتركوها من بعد طعمة للنيران ثم صعدوا مع مجرى نهر الرون وتمكنوا من مدينة «ارل» بفرنسا سنة ٨٤٩ .

فى نفس هذه السنة ارادوا تجديد المحاولة التي لاقت من قبل ايما نجاح فجمعوا على السواحل السردينية اسطولهم ومخروا عباب البحر ثم ارسوا تجاه مدينة اوستى لكن مصب النهر كان هذه المرة محصنا فلم يستطع المسلمون اقتحامه ثم جاء اسطول مدينة نابولي فنازل الاسطول الاسلامي الى ان ثارت زوبعة شتت شمل هذه العمارة كان يومئذ الامير مفرج يثبت مركزه بمدينة باري ويدعم هنالك سلطانه وقد اختطفي المدينة مسجداً للمسلمين واعلن انفصاله عن امير صقلية ثم اتخذ لنفسه لقبا كان قليل الاستعمال يومئذ بين المسلمين الا وهو لقب «السلطان» .

اعلمه الشوافون الذين ارسلهم يرتادون الطرق ويمهدون السبل امام الجيش ان زلزالا حطم اسوار المدينة وان المسلمين يستطيعون دخولها دون قتال فقال مصعر ان الله قد اظهر سخطه على هذه المدينة وانتقم منها فلا ازيد اهلها هما على هم ولوى عنانه وتركها وشأنها ترمم خرائبها كذلك يؤكدون انه كان يمر حوالى ديركاسان ولم يهاجمه ولم يرد احتلاله .

ولقد كانت الخلافات المستحكمة الحلقات بين امراء ايطاليا وزعماء مدنها تمنعهم من جمع الشمل والتكتل لمحاربة هذه الدولة الناشئة فاغتنمت هي تلك الفرصة وتكلت بالبلاد تنكيلا ذريعاً وكانت ترسل بسفنها مثقلة بالرقيق يباعون فى الاسواق الافريقية .

ويؤكد الرهبان المؤرخون بدير كاسان ان هذا السلطان كان يلتذ كل يوم بقتل خمسمائة نفس (١) واخيراً تمكن السلطان من احتلال دير كاسان نفسه(٢) وهنالك اخذ يلهو بالشراب فى اباريق الرهبان ويتطيب ببخورهم .

اخيراً ، فيما بين سنتي ٨٦٦ و٨٦٧ ، اعتزم الامبراطور نجدة المسيحيين بايطاليا ، فنازل المسلمين ودحرهم حتى اووا الى مدينتي باري وطارنطة ؛ لكن الامبراطور لم يستطع نصب الحصار على تينك المدينتين نظراً لفقد عمارة بحرية .

ولقد كان اسطول رومي جاء تلك الربوع ، لكنه اضطر للرجوع من حيث اتى ، وهكذا قويت آمال المسلمين وامتطوا صهوة الخيل العتاق التى غنموها من الافرنج فاندفعوا يجوسون خلال الديار ويمعنون فى غزوها .

لكن الامبراطور لويز لم يغبر عزمه رغم مرضه فخاطب جماعات المسيحيين الذين امدوه بقوة من رجال صقالبة دلماسيا (بلاد يوغوسلافيا اليوم) وسربيا ؛ وجاء اسطول القسطنطينية يعزز بحريا تلك الحملة وحمى الوطيس براً وبحراً واندحر جند اسلامي جاء مدداً لمدينة باري فبعد حرب عوان دامت اربعة اعوام وبعد حصار ضيق النطاق سقطت مدينة باري يوم ٢ فيفري سنة ٨٧١ (٣)

---

(١) الفرية ظاهرة ، ولا ينتظر من راهب بدير كاسان فى حالة حرب مع المسلمين وفى القرون الوسطى ان يكتب غير هذا .

(٢) المسافة بين باري ودير كاسان ٢٥٠ كيلو متراً .

(٣) يقول مؤرخو الطليان ان الامبراطور كان قد اقسم ليقتلن كل مسلم فى

لكن هذا النصر قد اقلق امراء ايطاليا وبلبل افكارهم ، خوفا من اغتنام الامبراطور تلك الفرصة لنصب سلطانه عليهم واخضاعهم ، فدبروا مكيدة واوقعوا الامبراطور اسيراً بين ايديهم يوم ١٣ اوت من تلك السنة ، وما اطلقوا سراحه وارجعوه لبلاده يوم ١٧ سبطامبر الا بعد ان تعهد بان يترك لهم سائر الغنائم والاسلاب التى استولى عليها بعد انهيار دولة المسلمين في باري كما تعهد لهم بانه لا ينتقم منهم جزاء خيانتهم .

فى هذه الاثناء كان الجيش الاسلامي الصقلي تحت قيادة امير صقلية العباس بن الفضل يكتسح جهات نابولي وقابو وبلاد البينيفنتان ، لكن امراء نابولي وقابو وبينفانتى تألبوا واوقفوا تيار المسلمين ؛ ولقد هاجم هذا الجيش الاسلامي مدينة « كاسينو » بشدة وكاد يتمكن منها لولا ان الامبراطور رغماً عما جرى قد هب لنجدتها ، ولقد اصابه مرض اثناء ذلك ، لكن قواده نالوا نصراً مبينا وفكوا الحصار عن المدينة في صايفة سنة ٨٧٢ ، لكن موت الامبراطور سنة ٨٧٥ قد جعل هاتيك الجهود الكبيرة تذهب سدى ؛ ذلك ان خليفة الامبراطور شارل الاصلع ، وقد ارسل البابا يستغيث به ضد المسلمين ، قد جند جنداً واجتاز جبال الالب ثم عاد ادراجه بسرعة نحو بلاده وقضى نحبه دون ان يقوم بادنى عمل ، ولم يجد البابا يومئذ من ملجأ يلجأ اليه الا مصانعة المسلمين ، فتعهد لهم بدفع جزية مكنته من راحة نسبية .

المدينة ، وكان الجوع قد حطم قوى المسلمين فبعد مقاومة يائسة استسلموا واحتل الامبراطور المدينة فذبح بسيوف جنده سائر « الكفار » ولم ينج منهم الا السلطان مفرج واثنان من خاصته هما حنون وعبد الباقي ؛ اذ اختفوا بعد انهيار الدفاع في برج من الابراج ، ثم ساروا ملتجئين لأمير بنيفانت « ادلغيز » فاكرم وفادتهم معترفا بجميل السلطان الذى كان قد انقذ شرف ابنته في سالف الايام .

لقد كان بحر الادرياتيك يومئذ مرتعاً لاعمال القرصنة الاسلامية و كانت مدينة البندقية وحدها تقاوم هنالك هاتيك الاعمال اما ايطاليا الجنوبية فقد كان امير بينيفانت غير مستطيع وحده الذود عنها .

كانت مدينة بيزنطة «القسطنطينية» قد ملكت عائلة امبراطورية جديدة هي عائلة مقدونيا وتولى كبرها يومئذ بازيل الاول واسترجعت بيزنطة ما كانت فقدته من صفة الحامية فجهز الامبراطور اسطولا حربيا عتيداً يشمل اربعين سفينة ارسل به نحو السواحل الصقلية الاسلامية فنال ذلك الاسطول فوزاً مبيناً . ثم انه في سنة ٨٨٠ تمكن الروم البيزنطيون من استخلاص قلورية من بين ايدي المسلمين ولقد كانت مدينة باري قد تقبلت قبل ذلك والياً روميا اغريقيا من قبل الامبراطور .

لكن تلك الراحة لم تدم حيث اننا رأينا سنة ٩٠٢ الامير ابراهيم بن الاغلب الثاني يكتسح بجنده ارض قلورية ويلاقي حتفه تجاه مدينة كوسترا .

ورغما عما اصاب المسلمين في الجنوب الايطالي فقد بقيت بايديهم مراكز منيعة مثل سابينو شمال بينيفانت وجنوب بسطوم وميدان كاربليانو المحصن وخرائب ديرفارفا ومن سائر هذه الجهات كانوا يستطيعون باستمرار تهديد مدينة روما .

يومئذ اعتزم البابا يوحنا العاشر التخلص نهائيا من هذه المعاقل الاسلامية المهددة ، فمنح تاج الامبراطورية لبير انجي الفريولي في دسامبر ٩١٥، لكن هذا الامبراطور الدعي لم يعمل عملا ، وانسحب للشمال الطلياني ، فاعتمد اهل روما على انفسهم واستعانوا بمركيز اسبوليت الامير البربك ؛ فاستولوا على معقل « فارفا » الاسلامي ، ثم تألب سائر امراء ايطاليا الوسطى والجنوبية وبذلوا اقصى جهودهم فتخلصوا من المعقل الاسلامي المنيع (كاربليانو) واعانهم الاسطول الرومي على ذلك ، واستولوا على المعقل وقتلوا سائر من كان به من المسلمين ؛ واقد

كان ذلك النصر الحاسم فى شهر اوت سنة ٩١٦ من اكبر وقائع ايطاليا الحربية ، وقد شارك فيه البابا بنفسه وعرض ذاته للخطر وكان فخوراً بذلك .

كان ذلك النصر قد درأ عن مدينة روما الخطر الاسلامى ، لكنه لم يدرأ عن السواحل خطر القرصنة ، ولم يدرأ عن الجنوب الطلياني خطر الغارات والغزوات .

فني سنتى ٩٣٤ و٩٣٥ ، استولت جنود الخليفة ابي القاسم الفاطمي على مدينة جنوة حينا ما وانتهبتها .

وفى سنة ٩٦٥ اندحر اسطول الروم تجاه مسلمي صقلية عند مدينة مسينا سنة ٩٦٥ (وقعة المجاز) (١)

وقد كانت يومئذ تكونت الامبراطورية المسيحية فى المانيا ، واراد الاباطرة ان يتولوا كبر الحملة على المسلمين .

فنى سنه ٩٨٢ سار الامبراطور اوطون الثاني نحوهم فاحتل مدينة طارنطة ثم واجه جند امير صقلية ابي القاسم عند السواحل تجاه مدينة ستيلو او كوترني ؛ ولقد تولى الفرسان الالمان مهاجمة القلب الاسلامى فضعضوا قواه ودحروه ، لكن الجناحان الاسلاميان تمكنا فورا من تلافى الفادحة ؛ فانطبقا بسرعة على فرسان الالمان ، وباء الالمانيون يومئذ بانهزام شنيع ؛ وانسحب الامبراطور مغلوبا مقهورا وما استطاع الفوز بنفسه الا بفضل سفينة رومية انقذته من الاسر ؛ اما امير صقلية فقد لقي حتفه شهيداً اثناء تلك المعركة (٢) .

ولقد مات الامبراطور قبل ان يتمكن من الاخذ بالثار وحدث اضطراب فى الامبراطورية فاصبح كل امير طلياني يتولى بجهوده الخاصة مقاومة المسلمين .

ففى سنة ١٠٠٢ حاصر مدينة بارى القائد الصقلى «الصافي» فدافع عنها القائد الرومي والعمارة البندقية معاً وابعد عنها المسلمين ثم ان مدينة بيزا تمكنت سنة ١٠٠٦ بواسطة

---

(١) انظر تفصيلها صفحة ١٤٨ (٢) انظر التفصيل صفحة ١٥٩

جهودها الخاصة من دحر اسطول المسلمين عند مدينة رجيو ثم تدخل النرمان وانتهى امر المسلمين .»

اسد الدولة احمد الاكحل

اولاه ابوه وارتضاه الناس فى السادس من شهر المحرم سنة ٤١٠ وابتدأ اعماله بحزم شديد فضبط الامور ومهد الراحة ودانت له سائر البلاد .

ولقد راى النرمان اثر حوادث الثورة السالفة ان الشقاق اخذ يدب من جديد بين مسلمى صقليه فراوا ان يهتبلوا الفرصة واخذوا يناوشون جند المسلمين لكنهم لم ينالوا فى اول الامر منالا واوقفتهم جنود احمد عند حدهم .

سياسة فرق تسد — كان اسد الدولة احمد الاكحل يعتمد على ولده جعفر كما كان اخوه جعفر يعتمد على وزيره الباغائي فكانت النتيجة خسرانا مبينا لهذا كما كانت النتيجة خسرانا مبينا لذلك .

راى جعفر بن احمد انه لا يمكن حكم صقلية والثبات بها الا بالاعتماد على فريق فيها دون فريق وتكوين عصبية متينة حول قصر الامارة تحميه من عاديات الزمن واضطرابات الشعب . ولو انه اعتمد على العدل والانصاف واحقاق الحق وازهاق الباطل كما اعتمد اجداده واعمامه من قبل لكان مآله احسن وعاقبته اضمن .

كان سكان صقلية ينقسمون الى فريقين فريق الصقليين المتاصلين الذين استوطنوا البلاد منذ اوائل عهد الفتح وفريق الافارقة الذين جاءوا البلاد حديثا مع ولاة الفاطميين واستقروا بها واغلبهم من البربر من كتامة وغيرها .

اراد جعفر ان يعتمد اول الامر على فريق الصقليين فخاطبهم فى الامر وقال لهم اننى أريد ان اخرج عنكم هؤلاء الافارقة الذين سكنوا بلادكم وشاركوكم فى دياركم واعتمد عليكم وحدكم فى حكم البلاد فقال له وجوه القوم حذار ان تفعل

ذلك ايها الامير فاننا قد صاهرناهم واصبحنا واياهم شيئا واحدا فلما اخفق مع هذا الفريق خاطب زعماء الافارقة فى الموضوع فقبلوا الاقتراح بسرور وابتهاج واصبحوا منذ تلك الساعة فريقا ممتازا فى الامة ، واعفوا من دفع الضرائب ، فاصبحت الاتاوات لا تمس الا الصقليين الاصليين خاصة ؛ فوقع من جراء ذلك اضطراب عظيم ، وانفصم حبل الامة وسادت الضغينة والاحقاد بين قسميها ، واستعد النرمان الذين كانوا يرقبون ذلك عن كثب لانزال الضربة النهائية على رأس ذلك الهيكل الذى تداعى للسقوط .

تدخل المعز بن باديس — اصبح الصقليون فى كرب عظيم فارسلوا خفية وفداً من وجوههم امّ بلاط المعز بن باديس مستصرخا مستنجدا ، وقالوا له : لئن لم ترسل من قبلك من يحكمنا حكما عادلا نزيها فاننا سنسلم انفسنا للروم تخلصا من الظلم الفادح

كان المعز بن باديس قد استقل فعلا بامور افريقيا وصفا له الجو موقتا فاقبل على الانشاء والتعمير ، وكانت له مدنية من اجل واروع ما رأته البلاد الافريقية .

وكانت الخلافة الفاطميه يومئذ تتخبط في مصر فى دياجير من الكفر والالحاد ، ومن الفسوق والفجور ومن المظالم والارتباك بين عصر الحاكم بامر الله وعصر ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ، بين ادمان الخمور والاعتكاف على اللذات ؛ فكان المعز ابن باديس يبغض الفواطم بغضا يكنه في فؤاده ، وكان يرى وجوب استخلاص اكثر ما يمكن من بلاد الاسلام وانتشالها من بين براثنهم .

وكذلك كان اهل صقلية قد راوا ان لا امل لهم في الاعتماد على الفاطميين ولا نجدة ترجى لهم من قبلهم فولوا وجههم كما رايت شطر القيروان يستصرخون ابن باديس ويستنجدونه .

اغتنم ابن باديس تلك الفرصة انجادا لاهل صقلية وادخالا لتلك البلاد تحت سلطة القيروان كما كانت اول مرة ، فارسل ولديه عبد الله وايوب وارسل معهما

جنداً قوياً يشمل ثلاثة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل فدخلوا ارض صقلية وهاجموا قصر الامارة مع من انضم اليهم من الصقليين فاستولوا عليه وقبضوا على الاخرق احمد الاكحل فى الخالصة وازهقوا روحه سنة ٤١٧ ؛ واخذ ابناء المعز يدبران الامر بحكمة ورأي سديد .

نكبة هائلة — كان النرمان ، كما قلنا يرقبون عن كثب سير الامور بصقلية ، ويستعدون لانزال الضربة الحاسمة بها ، وما كان الصقليون عن ذلك من الغافلين ، فقد ارسلوا الى المعز يستنجدونه ويستصرخونه ، ويطلبون اليه ان يمدهم بقوة عتيدة تمنع عنهم خطر النرمان وتحمى ارض الجزيرة من كل طامع ؛ ولقد كان النرمان وجماعة النصارى كما اسلفنا ، قد استخلصوا كامل ارض قلورية واحاطوا بصقلية متكالبين .

لبى المعز بن باديس رحمه الله الطلب ؛ فانتدب الناس واستنفرهم للجهاد ، وتطوع خلق كثير باعوا انفسهم لله وفى سبيل دينه ، وتم تجهيز اسطول يجمع ٤٠٠ سفينة مثقلة رجالا وخيلا وسلاحاً .

انما قضى الله يومئذ بهلاك الجزيرة ولا مرد لقضائه ، فذلك الاسطول العتيد الذى كان يستطيع بقوته وبمن فيه ان يقلب صفحة التاريخ فى صقلية، بله اروبا نفسها ، قد سار حتى وصل جزيرة قوصرة وهنالك اصابته زوبعة هائلة اتلفته كله ولم ينج من اهله الا القليل ؛ فكانت هذه النكبة المؤلمة والكارثة الجلى اكبر اسباب ضياع صقلية ، ومن اعظم اسباب ضياع ملك ابن باديس نفسه الذى اندك فيما بعد تحت ضربات الاعراب الهلاليين .

فى هاتيك الاثناء ، اجتمع اهل صقلية يتلاومون ، وقالوا لقد ادخلتم على حكمكم غيركم ، وفقدتم استقلالكم ، واستنصرتم من لا يستطيع نصركم فاتفقوا على نصب امير من عائلة بنى الحسن وارجاع الملك لهم ؛ فثاروا بولد المعز وقتلوا

من جندها زهاء الثمانمائة رجل ،وما وسع عبد الله وأيوب إلا الرجوع بفلولهما لافريقيا ونصب الصقليون فى بالرمة صمصام الدولة حسن شقيق أحمد الاكحل القتيل

صمصام الدولة حسن بن يوسف

ثائر العقد من وسطه ومن أطرافه،وأخذ الزمان يتقدمون فى البلاد وكان الصمصام مفلولا فلم يستطع ان يوطد ملكه او يثبت سلطانه، ولم يجد المسلمون يومئذ وسيلة تنجيهم من ذلك الخطر الداهم خطر الزمان المميت إلا الا نقسام على أنفسهم واستقلال كل أمير بناحية.

فى بالرمة العاصمة كان الصمصام حسن يحكم الناحية الشمالية وفى مازرة وما حولها استقل بالامر عبد الله بن منكوث وفى جرجنتي وما إليها استبد بالامارة علي ابن نعمة بن الحواس وفى سرقوسة وقطانية استقر بن الثمنة واستقل فى جهة مسينا أمير آخر وأصبح أمر البلاد فوضى و تغلب سفلة القوم على اصحاب الرأي والاصالة فيهم .

القادر بالله بن الثمنة

اجتمع أهل بالرمة وأعلنوا خلع طاعة حسن لما راوا من ضعفه وما كان ضعيفاً إلا بهم وأمروا عليهم القادر بالله ابن الثمنة ضامين بذلك إمارتي سرقوسة وقطانية وإمارة بالرمة وكان ابن الثمنة متزوجا ميمونة أخت علي ابن الحواس أمير جرجنتى فكان ذلك بادرة من بوادر جمع الكلمة ومحاولة يائسة لتوحيد صفوف تلاشى نظامها أبديا (١)

الحرب الاخوية والخيانة — سكر الامير يوما فخاط فاتهم زوجه أخت ابن

(١) اثناء هذه الحوادث سنة ٤٣٠ وما حواليها توطد قدم الاتراك السلجوقيين ببلاد الشام و فلسطين وانتزعوها من أيدى ملوك الطوائف وأمراء الفاطميين .

الحواس تهمة هي منها بريئة فقطع لها عرق الزند لتموت من نزيف الدم لكن ولدها ادركها في اللحظة الاخيرة وجاءها بالاطباء فانعشوها ومن الغد ادرك الامير سوء فعله فاعتذر لزوجه وتظاهرت بقبول الاعتذار ثم طلبت اليه ان تذهب لزيارة اخيها فاذن لها وهنالك قصت على ابن لحواس ما فعل بها زوجها فاقسم لينتقمن لها منه وجمع جموعه لا لرد غائلة النرمان بل لمحاربة امير بالرمة ابن الثمنة والتقى الجمعان ودارت الدائرة على ابن الثمنة ومن معه وانتصب ابن الحواس اميراً في بالرمة

اما ابن الثمنة فقد ادت به النذالة والصغار الى جزيرة مالطة حيث كان ملك النرمان وطلب اليه ان يمده بجنده ووعده بملك الجزيرة وما كان زوجي الاول ملك النرمان ينتظر الا مثل ذلك الحادث فجمع اسطوله وجموعه الوحشية وسار مع الخائن ابن الثمنة كما سافر منذ مائتي عام اسد ابن الفرات مع الخائن اوفيماس لفتح صقلية .

خراب دولة المعز على يد بني هلال — في سنة ٤٣٥ (١٠٤٧) حيث كانت

تجري هذه الحوادث وحيث كان من المستطاع التفات المعز من جديد بعد نكبة الاسطول السالفة الذكر وبعد اخراج ولديه من صقلية لتلك الناحية البائسة وقعت في مدينة القيروان الفتنة الشهيرة ضد الشيعة او الرافضة كما كانوا يدعون في ذلك الوقت وانقض اهل السنة على رجال الشيعة فقتلوهم في الحواضر والبوادي اشنع قتلة واعلن المعز يومئذ خلع طاعة الفاطميين وخطب للخلافة البغدادية العباسية وحمل الناس عامة على مذهب مالك ابن انس رضي الله عنه ثم جاءه من بغداد سنة ٤٣٩ الوزير ابو الفضل بن عبد الواحد الدرمي يحمل له من الخليفة العباسي القائم بامر الله تقليداً يعترف له فيه بالاستقلال .

بلغت تلك الانباء مدينة القاهرة ، فعظم الامر على بلاط الفاطميين فيها ، ولقد اشار على الخليفة المنتصر بالله ، وزيره احمد بن علي الجرجاني " ان يرسل

اعراب بني هلال على بلاد المغرب، انتقاما للشيعة ، وتحطيما لسلطان صنهاجة وملك بنى باديس ؛ وتخلصا فى آن واحد من اولئك الاعراب الذين كثرت قلاقلهم فى شرق الصعيد المصرى .

قبل الراى كما هو معلوم فى كتب التاريخ ، وانصب على ارض افريقيا من تلك الجموع نحو النصف مليون نسمة ، صادموا جند المعز سنة ٤٤٠ فدحروه وتحصن فى القيروان فنازلوه بها واحتلوها والحقوا بها نكبة كانت من اكبر نكبات التاريخ في العالم الاسلامي ، فاندكت بذلك معالم مدنية من ازهى وازهر مدنيات هذه البلاد :

يقول شاعر بلاط المعز الحسن ابن رشيق ، واصفا مصيبة القيروان من قصيد طويل :

حسنت فلما اذ تكامل حسنها ... وسما اليها كل طرف وان
وتجمعت فيها الفضائل كلها ... وغدت محل الامن والايمان
نظرت لها الايام نظرة كاشح ... ترنو بنظرة كاشح معيان
حتى اذا الاقدار حم وقوعها ... ودنا القضاء لمدة واوان
اهدت لها فتنا كليل مظلم ... وارادها كالناطح العيدان
بمصائب من فادع واشالب ... ممن تجمع من بنى دهمان
فنكبوا بامة احمد اتراهموا ... امنوا عقاب الله فى رمضان
نقضوا العهود المبرمات واخفروا ... ذمم الاله ولم يهوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار وانروا ... سبي الحريم و كشفة النسوان
ساموهم سوء العذاب واظهروا ... متعسفين كوامن الاضغان
والمسلمون مقسمون تنالهم ... ايدى العصاة بذلة وهوان
يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حتى اذا سئموا من الازمان

بادوا نفوسهم فلما انفذوا ما جمعوا من صامت وصوان
خرجوا حفاة عائذين بربهم من خوفهم ومصائب الالوان
هربوا بكل وليدة وقطيمة وبكل ارملة وكل حصان
فتفرقوا ايدي سبا وتشتتوا بعد اجتماعهم على الاوطان

اما المعز فقد ترك اواسط البلاد للاعراب والتجأ الى الساحل ، فاستقر فى المهدية . ثم هدأت نوعا ما عاصفة الاعراب الذين اخذوا يتوغلون فى بلاد الشمال الافريقى من مشرقه الى اقصى مغربه ، واخذت الدولة الصنهاجية تنتعش شيئا فشيئا ، وكانت فيها باقية صالحة للحياة .

ملوك الطوائف وتميم بن المعز — انقسمت البلاد التونسية يومئذ ، وكانت مهد وموطن الدولة الصنهاجية الى عدة امارات صغيرة واهية البنيان ضعيفة الشأن .

فمنها امارة بني خراسان بمدينة تونس وما حواليها ، استقلوا بشؤون تلك الناحية من حوالي سنة ٤٥٨ الى سنة ٥٥٣ (١) .

ومنها امارة بني جبارة بن مكي استقلت بناحية سوسة الى سنة ٥٥٤ .

وامارة بنى مدافع بن جامع الهلالي ، استبدت بناحية قابس وما اليها من بلاد

(١) اثر نكبة الدولة الصنهاجية الشرقية على يد الهلاليين وخراب القيروان ، اعلنت مدينة تونس التى كانت يومئذ من ازهى وازهر المدن في الشمال الافريقي انضمامها للمملكة الصنهاجية الغربية ؛ مملكة بني حماد ، وكانت قد استقرت فى بجاية وانتظم شملها وذاع صيتها واصبحت كعبة القصاد ومحط رحال رجال العلم والادب وكبار الشعراء ؛ فعين ملك بجاية الناصر ، الامير عبد الحق ابن خراسان واليا على مدينة تونس وما حواليها ، فلما استقر به المقام وتم له الاتفاق مع اهل البلاد ؛ اعلن استقلاله ، وحافظ هو وبنوه على ذلك الاستقلال فى تلك الامارة الصغيرة الرقعة الكبيرة الاهمية مدى مائة عام .

الجنوب الى سنة ٥٥٥ .

اما ناحية الجريد ، فقد استقرت بها عائلة بنى الرند ، ودام استقلالها اكثر من الامارات السابقة اي الى سنة ٥٧٥ .

واخيراً بمدينة المهدية وحواليها من ناحية الغرب والجنوب ؛ ثبتت امارة بنى المعز بن باديس الصنهاجية ، الى سنة ٥٥٥ ، حيث جاءت دعوة مهدية اخرى من ناحية المغرب كانت هذه المرة سنية موحدة قضت على ملوك الطوائف ووحدت بلاد الشمال الافريقى فى امور الدين والدنيا ؛ على يد بطل من ابطال الاسلام الخالدين عبد المؤمن بن على .

وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهدية، كما ازدان ملكها من قبل بالقيروان ببلاط فاخر التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم واعلام الادب وكبار الفلاسفة والشعراء ؛ فكانت ايام المهدية على صغر حجم المملكة وتعاقب الحروب بينها وبين الهلاليين اياما مشهودة فى تاريخ الفن والعلم والادب ، وقصدها من كل ناحية امثال فيلسوف الاندلس الشهير امية ابن ابي الصلت والمجتهد الاكبر الامام المازرى والتجأ اليها بعد خراب صقلية شاعرها الاعظم عبد الجبار بن حمديس ؛ وكان امير المهدية تميم بن المعز من خير الرجال عقلا وادبا وحسن ادارة ومعرفة باصول الادب والشعر ، وانه ليصور لك حال مملكته وحال رجاله وحال العالم الاسلامي كله فى ذلك العصر اذ يقول :

يادهر ما اقساك من متلون ... فى حالتيك وما اقلك منصفا
اتروح للنكس الجهول ممهداً ... وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفا
واذا صفوت كدرت شيمة باخل ... واذا وفيت نقضت اسباب الوفا
لا ارتضيك وان كرمت لانني ... ادرى بانك لا تدوم على الصفا
زمن اذا اعطى استرد عطاءه ... واذا استقام بدا له فتحرفا

ما قام خيرك يازمان بشره اولى بنا ماقل منك وما كفى

ثم هو يخاطب البقية من قومه ،يحرضهم ويستفزمنهم الحمية ، كأنه يلهب فيهم نار الايمان ليرسل بهم نجدة لمسلمي صقلية :

متى كانت دماؤكم تطل اما فيكم بثار مستقل
اغانم ثم سالم ، ان فشلتم فما كانت اوائلكم تذل
ونمتم عن طلاب المجد حتى كأن العزم فيكم مضمحل
وما كسرتم فيه العوالي ولا بيض تفل ولا تسل

وتسمو به احيانا نفسه الابية حتى تبلغ ذروة الطموح للعلى واسترجاع المجد الآفل :

بكر الخيل دامية النحور وقرع الهام بالقضب الذكور
لافتحمنها حربا عوانا يشيب لهولها راس الصغير
فاما الملك في شرف وعز علي التاج في أعلى السرير
واما الموت بين ضبا العوالي فلست بخالد ابد الدهور

محاولة انقاذ صقلية — اخذ فى صقلية اميرها المتغلب علي بن الحواس يجمع الجموع ويحاول توحيد الكلمة ، لتاليب الناس ضد النرمان والدفاع النهائى عن حكم المسلمين بتلك الجزيرة.

فى هاتيك الاثناء قصد وفد من رجال الجزيرة مدينة المهدية ، وقد علم كما علمت فضل اميرها ونخوته وهمته العالية ، فاستنجده واستمد منه الاعانة على الفرنج المتكالبين فما كان من الامير تميم بن المعز الا تلبية الدعوة ، واستنفار الناس للجهاد ، فجهز بعض قطع الاسطول الذى كان بالمهدية ، وحمله ثلة صالحة من بقايا جنده ، وارسل بكل ذلك تحت قيادة ولديه علي وايوب .

نزل علي بن تميم بقسم من الجند في مدينة بالرمة ، ونزل أيوب بالقسم الاخر

فى مدينة جرجنتى فاكرم ابن الحواس وفادتهما، وتفاءل الناس خيرا بهذا المدد الكريم ، واحسن ايوب وعلي السيرة ، فمال اليهما الناس واحبوهما حبا عظيما واستعد الجميع للجهاد ضد النرمان .

لكن ابن الحواس خشي منهما على ملكه المتضعضع ، وخاف زوال سلطانه الآفل ، ففرق الكلمة بعد اجتماعها ، وشتت الشمل بعد التئامه ، وجمع جماعة من جنوده صادم بهم نذالة وخيانة وصغاراً جند المنقذين علي وايوب ومات اللعين فى معركة بضربة سهم .

اجتمع اكثر الناس يومئذ على ولاية ايوب ، وروا فيه الرجل الصالح والقائد الذى يمكنه انقاذ الجزيرة من رجال النرمان الذين كانوا يتقدمون دائما، فيا كلون اطرافها ، وقد التهموا منها الشيء الكثير بل اصبح اكثرها بين ايديهم واخذت نيران الحماس تتقد فى النفوس يذكيها شعراء امجاد امثال عبد الجبار بن حمديس الذى انشد قصيدا خالدا انتشر يومئذ بين الناس فاستنهض هممهم ودفع بهم الى مقاومة عنيفة هي مقاومة اليائس المستميت ، فلما رأيت لها مثيلا فى استفزاز الهمم الفاترة للدفاع عن الوطن المشرف على الهلاك وانني لا ارى غنى عن تسجيل هذا القصيد برمته لانه يمثل بنفسه صفحة من اغرب واروع صفحات الجهاد الاسلامي بصقلية . يقول ابن حمديس :

بنى الثغر لستم فى الوغى من بني امي	اذا لم اصل بالعرب منكم على العجم
دعوا الخوف انى خائف ان تدوسكم	دواه وانتم فى الامانى مع الحلم
وكاس بام الموت يسعى مديرها	الى اهل كاس حثها بابنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة	مصرحة فى الروم بالثكل واليتم
تهيل مع النقع المحلق بالضحى	على الشمس ماهالته ليلا على النجم
وصولوا ببيض فى العجاج كانها	فروق بضرب الهام محمرة السجم

فلا عدمت من سلها من غمودها ظهوراً فقد تخفى الجداول بالرجم
وقرع الحسام الرأس من كل كافر احب الى سمعى من النقر فى اليم
ووالله منكم كل ماض كعضبة يسير الى الهيجاء متقد العزم
يحدث بالاقدام نفسا كانها تطير الى الحرب اشتياقا عن السلم
ويسطو بمحجوب الظباء اذا بدا جلا ما جلا بالصبح من ظلمة الظلم
له دخلة فى الجسم تخرج نفسه قبيل خروج الحد منه على الجسم
وما يقتدى منه بلحم ولا دم ولكن بما فى العظم بالبري للعظم
ليوث اذا ما اقبل الموت فاغراً يردد فى الاسماع جرجرة القوم
له عين ضرغام هصور فقلبه بتصريف فعل الجهل منه على علم
ولله ارض ان عدمتم هواءها فاهواؤكم فى الارض منثورة النظم
وعزكم يفضى الى الذل والنوى من البين ترمى الشمل منكم بما ترمي
وان بلاد الناس ليست بلادكم ولا جارها والحكم كالجار والحكم
أعن ارضكم تغنيكم ارض غيركم وكم خالة جداء لم تغن عن أم
تقيد من القطر العزيز بموطن ومت عند ربع من ربوعك او رسم
واياك عنه ان تجرب غربة فلن يستخير العقل تجربة السم

الانجلاء النهائي — استمر الجهاد عنيفا قاسيا ، انما كان النرمان يتقدمون فى البلاد باستمرار ؛ واخذ الخناق يضيق على المسلمين هنالك ؛ ولقد صدق من قال :

يغمى على المرء فى ايام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ففي هاتيك الايام ، والنرمان يتقدمون والمسلمون يتوالى خسرانهم ويستمر انهيارهم تألب جماعة من المسلمين هنالك ضد ايوب بن تميم ؛ وناووه وقاتلوه على مرأى ومسمع من النرمان فعلم هذا انه خسر الصفقة وعلم كبار القوم هنالك ان صقلية قد ضاعت على يد سفهائها واذنالها فقرر ايوب وقرر وجوه القوم معه الانسحاب

الى المهدية ، فركبوا الاسطول ، حاملين معهم جميع من راى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم واعيانهم وعامتهم وكان ذلك سنة ٤٦١ (١٠٧٣) وعندئذ انتهى امر المقاومة المنظمة او الشبيهة بالمنظمة وخلا الجو لرجال النرمان فاندفعوا يحتلون بقايا الجزيرة .

آخر مقاومة — لم يبق يومئذ بارض الجزيرة بيد المسلمين الا قلعة قصريانة ومدينة جرجنتى فقصدهما رجار الاول ملك النرمان ، ونصب عليهما الحصار وضيقه وتفانى اهل المدينتين في الدفاع ، واستبسلوا استبسالا لو وقع من قبل مثله لبقيت صقلية احقابا عديدة اخرى بيد المسلمين ، ودام الحصار ثلاثة اعوام ، حتى اكل المحصورون الجيف ، فاستسلمت جرجنتى ونصب النرمان عليها لواء الصليب وبقيت قصريانة ثابتة منيعة رغم الجوع والخصاصة والالآم ؛ فسجلت فى تاريخ المقاومة الاسلامية ضد النرمان ؛ ما سجلته من قبل فى تاريخ المقاومة المسيحية ضد المسلمين وهكذا ابى الله الا ان يختم صفحة المسلمين بصقلية ، ختاما كله عزة وشرف وفخار وما استسلمت قصريانة تحت ضربات رجار العنيفة الا سنة ٤٨٤(١٠٩٦)اي٢٣عاما بعد انسحاب المسلمين مع ابوب ابن تميم ابن المعز وتملك يومئذ النرمان كامل جزيرة صقلية (١)

(١) لم يكتف النرمان باحتلال صقلية والثبات بها ، بل تتبعوا المسلمين الى البلاد الافريقية ، واثخنوا فيهم واصبحت اساطيل الملك رجار تلقي الرعب فى قلوب سكان السواحل الاسلامية بافريقيا الشمالية ؛ فكانت نتيجة سقوط صقلية ان استولى النرمان على مدينة طرابلس الغرب سنة ٥٤٠ ؛ فافنى رجالها وسبى حرمها ، لان اهلها ثاروا بالنرمان واطردوهم ، اذا كانوا قد احتلوها قبل ذلك سنة ٥٢٠ .

ثم احتل النرمان مدينة صفاقس سنة٥٤٣ ، واحتلوا مدينة المهدية ، واطردوا منها سلطانها الحسن بن على بن يحي سنة ٥٤٣ .

سيرة النرمان الاولى — كان النرمان لم يختلطوا بعد بالمسلمين في غير ميادين القتال فكانوا لم يزالوا على فطرتهم الوحشية الاروبية الاولى ، ولم يغترفوا بعد من المدنية الاسلامية التي كانت وضاءة لامعة رغم الحروب ورغم الفتن والقلاقل والخلافات السياسية والحزبية والعنصرية .

فان رجار الاول ملك النرمان لما تم له الامر كاملا بارض الجزيرة اسكن الروم والنرمان مع المسلمين فى سائر جهاتها ، فتم الاختلاط بينهم ؛ ولم يترك لاهلها من المسلمين حسبما يرويه ابن الاثير : حماماً ولا دكانا ولا طاحوناً ولا فرناً .

فكانت ايام رجار الاول — نحو الثلاثين سنة — ايام تنكيل وزجر ، ايام افتلاع كل جذور الحكم الاسلامي بالجزيرة وتمكين سلطان المسيحية فيها ، كانت دوراً من ادوار الفتح الحربى ، دام طيلة ايام رجار الاول ؛ الا انه يسجل لهذا الملك انه لم يعمد الى قتل المسلمين ولم يشردهم عن البلاد ، فكان ذلك سببا فى بقاء المدنية الاسلامية وازدهارها فيما بعد بصفة لامعة وضاءة ، وكان النرمان انفسهم اول مستفيد منها .

وفى سنة ٥٤٨ احتلوا مدينة عنابة وجزيرة قرقنة .

واحتلوا سنة ٥٤٨ كذلك جزيرة جربة وفتكوا باهلها فتكا ذريعا .